

المثل الأخلاقي وفن المديح

Moral parable and the art of compliment

الباحثة/ لطيفة إبراهيم الرشيدى

ماجستير لغة عربية، كلية العلوم والدراسات الانسانية، جامعة شقراء، المملكة العربية السعودية

Email: Lalrashyde@su.edu.sa

المخلص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على مفهوم الأخلاق من منظور غربي وفلسفي وإسلامي ومدى تفاوت الآراء في تحديد مفهوم القيم الأخلاقية ومصدرها حيث يرى الغرب بأن الأخلاق هي نظرة متغيرة نسبية قوامها مصلحة الجميع، والمثل الأخلاقية من المنظور الفلسفي تشير إلى أنها نتاج المجتمع التي يلتزم بها الأفراد وأحكامهم العقلية التي تصدر منهم، ومن الناحية الإسلامية ينظر إلى المثل الأخلاقية بأنها علاقة الفرد بربه والمجتمع، وجاءت هذه الدراسة أيضا في الحديث عن أهم الأغراض الشعرية وهو المديح ومفهومه وعلاقته بحياة الشاعر وقبيلته.

اشتملت هذه الدراسة على مقدمة وفصل يتكون مبحثين وخاتمة تليها المصادر والمراجع، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة أن المثل الأخلاقية كانت موضع جدل وخلاف بين النقاد العرب والقدامى والمحدثين وشعر المديح الذي قيل بغرض التكبس أكسب الشعر الوانا جديدة واهتمام الشاعر في التألق بقصيدته حتى تكون محط إعجاب الممدوح.

الكلمات المفتاحية: الاخلاق، قصيدة، أبي تمام، العرب، الادب، المدح.

Moral parable and the art of compliment

Abstract

This research aims to shed light on the concept of ethics from a Western, philosophical and Islamic perspective, and the extent of disparity in opinions in defining the concept of moral values and their source. And their mental judgments that come from them, but from the Islamic point of view, moral ideals are seen as the relationship of the individual to his Lord and society, and this study also came to talk about the most important poetic purposes, which is praise and its concept and its relationship to the life of the poet and his tribe.

This study included an introduction and a chapter of two sections and a conclusion followed by sources and references, and among the most important findings that the researcher reached is that moral ideals were the subject of controversy and disagreement between Arab critics, ancient and modern, and praise poetry that was said for the purpose of earning. Mamdouh's admiration.

Keywords: Eithics, Poem, Abutmmam, Arabs, Literature, Praise

المقدمة:

العلاقة بين المديح وإبراز المثل الأخلاقية عند الممدوحين وثيقة؛ فالمديح قائم على أساس إظهار المحاسن والمناقب للممدوحين. ولما للأخلاق من أهمية بالغة عند العرب، فقد حرص الأدب على إثباتها، أن بعض الشعراء سعوا جاهدين إلى ترسيخ الأخلاق الحميدة في مديحهم، كما يعد المديح لديهم منظومة من الآداب الإسلامية، كذلك أظهر فن المديح قوة العقيدة عند الشعراء، حيث أنهم ضمّنوا الصورة المديحية كثيرا من أبيات الحكمة والأدلة النقلية والمنطقية كما هو الشأن في قصيدة فتح عمورية التي مدح بها المعتصم وغيرها من القصائد.

أهمية الدراسة:

العلاقة بين الشعر والأخلاق علاقة وطيدة؛ فالأدب تعبير عن المجتمع الذي لا يستقيم ولا ينهض إلا بهذه الأخلاق؛ ولهذا ارتبط فن المديح برصد الأخلاق الحميدة للممدوح. من ثمَّ يحاول البحث أن يكون إضاءة حول القيم والمثل الأخلاقية، هذه القيم التي تعدُّ مثلًا أخلاقية ترسخت في أذهاننا وسلوكنا، ونقلت هذه المثل الأخلاقية في شعر المديح من مجرد معنى مدحيٍّ إلى قيمة عظيمة يدعو إليها الشاعر، ويستقبلها الفرد المجتمع، وهذا ما دعا الباحثة إلى اختيار هذا الموضوع.

أهداف الدراسة:

أن الأعراف والعادات والتقاليد المجتمعية تُمثل الركيزة الأساسية التي يستمد منها الفرد أولويات سلوكه، وهذا يُفسر التباين في المثل الأخلاقية بين المجتمعات، فلكل مجتمع أو أمة مثلها المختلفة عن غيرها من الأمم، وإن كان بينهم مثل مشتركة، فالكرم يُعد من أهم المكارم عند العرب، ولا نجده بهذه الأهمية عند الغربيين، والنظرة للرجولة في المجتمع العربي ليست كمثيلتها في المجتمعات الغربية من حيث: الطبيعة والمهام والمسؤوليات... وهذا لا ينفي اشتراك البشر بقيم ثابتة لا تتغير وإن تباينت درجة اهتمام المجتمعات بها، كالصدق والأمانة والشجاعة... إلخ.

وقد اختلفت الأخلاق عند العرب قبل الإسلام عما أصبحت عليه بعد الإسلام؛ فقد اتصف العرب ببعض الأخلاق الحميدة التي افتخروا بها في أشعارهم، ومن تلك الصفات: الكرم، وحماية الجار، ونصرة الضعيف، وحفظ الأعراض. وكان للعرب-قبل الإسلام- عادات سيئة بعيدة عن مكارم الأخلاق، مثل: العبودية، والتعدي على غيرهم، ووأد البنات، والتشاؤم، والتعصب القبلي، فلما بزغت شمس الإسلام، دعاهم إلى التخلي عن هذه الأخلاقيات السيئة مؤكداً أنه دين الأخلاق الحميدة.

وقد بعث الرسول ﷺ بالأخلاق الحسنة مؤكداً أن الغرض من البعثة هو نشر مكارم الأخلاق وإتمام نواقصها، فقال ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"⁽¹⁾؛ لذلك قال ابن القيم: "الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين"⁽²⁾.

(1) محمد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، الأدب المفرد، حققه وقابله على أصوله سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1998م، ج1، ص 143 رقم (273)، وحسنه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2004م، ج 1 ص 112، رقم (45).

(2) محمد بن أبي بكر أيبوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي - بيروت، لبنان، ط 2، 1393 - 1973م، ج2، ص 307.

ويُرْعَبُ رسول الله في الأخلاق الحسنة مؤكداً أن خير الناس أحسنهم خُلُقاً فيقول: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقاً»⁽³⁾، وكان ﷺ يَحْتُ على كل خلق حسن؛ فأحب الناس إليه وأقربهم منه منزلة يوم القيامة ذوي الأخلاق الحميدة، وفي ذلك يقول: «إِنْ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلَسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا ... إِبْخ»⁽⁴⁾، وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخلق...»⁽⁵⁾، وقال ﷺ: « ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب الخلق ليبلى به درجة صاحب الصوم والصلاة»⁽⁶⁾، بل جمع الرسول ﷺ كل جوانب الخير في الأخلاق فقال: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»⁽⁷⁾.

هذا غيض من فيض؛ فالشواهد الدالة على منزلة الأخلاق في الدين الإسلامي الحنيف كثيرة؛ فالأخلاق سبب في سعادة المسلم في الدنيا والآخرة لكونها توجه سلوكه إلى فعل الخيرات، وترك المنكرات، قد كانت أخلاق التجار الإسلامية سبباً رئيساً في دخول كثير من الناس الإسلام من كل حذب وصوب، ولا يزال الإسلام ينتشر في بلاد العالم بقوة الأخلاق وتعاليمه السمحة.

ومن أجل ذلك ازدادت عناية الأمة الإسلامية بالأخلاق، وخاصة بين مثقفيها وعلمائها وشعرائها، وكثر إنتاجهم الثقافي والشعري في دعم الأخلاق الحميدة.

وهذا يأخذنا حثيثاً إلى موضوع الدراسة؛ فقد زادت عناية الشعر بالأخلاق والمثل الأخلاقي، وتناول الشعراء الأخلاق في أغراض الشعر كافة: الغزل، والمديح، والفخر، والرثاء، حتى الهجاء كان يذكر مثالب القوم وأخلاقهم القبيحة.

ولعل ذلك ما دفع الباحثة إلى الخوض في غمار هذا الموضوع بحثاً ودراسة؛ فهذه الدراسة لإظهار أثر المثل الخلفي في الشعر العربي.

(3) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت256هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-ج4، ص189 برقم (3559).

(4) محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي - بيروت، حديث رقم (2018).

(5) المرجع السابق، حديث رقم 2004.

(6) المرجع السابق، حديث رقم 2003.

(7) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي، توزيع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، حديث رقم (2553).

منهج الدراسة:

وأما عن المنهج العلمي المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي الإحصائي يقوم على تسلسل منطقي للأفكار.

محتوى الدراسة:

وقد اشتملت هذه الدراسة على مقدمة، وفصل واحد من مبحثين، وخاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها الدراسة. وفيما يلي بيان بالبناء الهيكلي للدراسة وفق الآتي:

المقدمة: يعرض للمقدمة النظرية للدراسة، والمتمثلة في: أهمية الدراسة، وأهدافها، ومنهج الدراسة، وحدود الدراسة.

الفصل الأول: (المثل الأخلاقي وفن المديح)، وقد اشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: (مفهوم المثل الأخلاقي): تناول تعريفاً شاملاً كاملاً للمثل الأخلاقي والأخلاق عند العرب وغيرهم، قديماً وحديثاً، ويستعرض رؤية الباحثين والمفكرين للأخلاق، ودورها في تنمية المجتمعات، وعلاقة الأخلاق بالأفراد والجماعات وما لها من أثر في تكوين نفسية الفرد وتنظيم شؤون المجتمعات.

وبرز في هذا المبحث أوجه الاتفاق والاختلاف بين وجهة النظر الإسلامية المتعلقة بموضوع الأخلاق ووجهة النظر اليونانية والنظرة الغربية في ذات الشأن. كما تطرق إلى ما يمكن أن ينطوي تحت منظومة الأخلاق البشرية من دعائم كالعادات والأعراف البشرية، إضافة إلى الضمير والنفس البشرية.

المبحث الثاني، وقد جاء بعنوان: (العلاقة بين فن المديح والمثل الأخلاقي)، وابتدئ هذا المبحث بتعريف المدح مع إيراد شواهد قرآنية وشعرية، كما مال إلى تأصيل كلمة المدح ببيان جذرها اللغوي والاصطلاحي. وتطرّق المبحث إلى بيان أسلوب المدح وطرائقه اللغوية.

وكذلك بيان أهمية غرض المدح بين أغراض الشعر العربي، وما لهذه الأهمية من صلة وثيقة بحياة الشاعر القبلية، وعلاقته بقبائل ممدوحيه، وظهر هنا التدرج الذي واكب تطور المدح في الشعر؛ إذ بدأ مدحاً خالصاً صادقاً فيه الشاعر إن افتخر بنفسه أو بقبيلته أو مدح غير قبيلته وصولاً بهذا التطور إلى الغلو والمبالغة بسبب التكسب بالشعر. ومن وجهة نظر أخرى نجد أن وصول المدح إلى باب التكسب قد أكسب الشعر ألواناً جديدة وعناية بالغة من الشاعر حول القصيدة قبل أن يظهرها إلى العلن.

المبحث الأول: مفهوم المثل الأخلاقي

الدعوة إلى المثل الأخلاقية من أفضل الدعوات التي دعا إليها الدين الإسلامي؛ ولكونه دين الفطرة فإن كل مولود مفلطح على حب الخير له وللناس؛ فالأخلاق تعمل على تغذية الشعور الإنساني، وتكثف الفرد تكيفاً سليماً مع غيره.

فالأخلاق "صفة مستقرة في النفس- فطرية أو مكتسبة- ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة" (8). وقد عرّفها الجرجاني بقوله: "عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سُميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقاً سيئاً" (9).

والأخلاق منها ما هو ذاتية: كالشجاعة، والأمانة، والثقة بالنفس. ومنها ما هو مجتمعية: كإعانة المحتاج، والحلم، والعفو عن الناس، الإحسان إليهم، والوفاء بالعهود.

وسوف تسلط الباحثة الضوء في هذا الورقة العلمية على الأخلاق من منظور غربي وفلسفي وإسلامي. فالنظرة الفاحصة على المنظور الغربي للأخلاق تدل على تفاوت آراء فلاسفة أوروبا في تحديد مفهوم القيم، يقول رالف بارتن: "الحقيقة أنه لا يوجد للقيمة معنى ثابت ... فمختلف الناس يعنون أشياء مختلفة في سياقات مختلفة" (10).

ومن "أجود ما قيل في القيم عند الغربيين هو: إنها محطات أو مقاييس نحكم بها على الأفكار والأشخاص والأشياء والأعمال من حيث حسنها وقيمتها أو من حيث عدم قيمتها" (11).

وتتسم القيم الشخصية بأنها متغيرة لكونها تتغير من بداية حياة الإنسان؛ فهي تنمو في مرحلة مبكرة من حياته، ثم تتغير تبعاً لتطور المجتمع وثقافتهم. يقول رضوان زيادة: "التطور التاريخي هو الذي يساهم في تحديد القيم الشخصية" (12).

(8) عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط5، - 1999م، ص 10.

(9) علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط1، - 1983م، ص 101.

(10) مانع محمد المانع، القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنة، دار الفضيلة، الرياض، 2005م، ص 17.

(11) المرجع السابق، ص 22.

(12) رضوان زيادة وكيف جيه، صراع القيم بين الإسلام والغرب، دار الفكر، دمشق 2010م، ص 47.

أما من حيث مصدر القيم والقول بأنها نشأت من صنع المجتمع أو الفرد نفسه، فيرى أندريه بريدو: أن "القيم مصدرها الأحكام الشخصية أولاً، أحكام القيمة التي يصدرها الشخص على الأشياء بناءً على حاجته إليها أو منفعتها، وشيئاً فشيئاً تتوضع القيم مع الحياة الاجتماعية لتصبح ذات طابع اجتماعي"⁽¹³⁾.

إن نظرة الغرب للأخلاق هي نظرة متغيرة نسبية، قوامها مصلحة الجميع. واعتمدت على الإنسانية والديمقراطية التي تعد عند الغرب من أهم القيم التي تتيح للأفراد والجماعات التعايش والتوافق معاً. وهكذا اختلفت الأخلاق من أمة إلى أخرى؛ فالأخلاق عند فلاسفة اليونان تختلف في توجهها عن الأخلاق عند غيرهم من الأمم والشعوب الأخرى، والنظرية الأخلاقية في الإسلام تختلف عن الفلسفة الأخلاقية في مذاهب الرأسمالية أو النفعية والاشتراكية.

فالأخلاق عند فلاسفة اليونان (سقراط وأفلاطون وأرسطو) تختلف في منهجها عن منهج السفسطائيين الأخلاقي؛ فهي عند الفلاسفة تتميز بأنها مطلقة ثابتة، بيد أن السفسطائيين يرون أنها نسبية متغيرة؛ وذلك لاختلافهم حول "الهدف الذي رآه السفسطائيون بأنه مصلحة شخصية. في حين كان أفلاطون ممن عارضوا هذا الفكر، ورأي أن ذلك يهدم الفضيلة، ويشوه الهدف الحقيقي من الأخلاق"⁽¹⁴⁾. ووقف سقراط في وجه السفسطائيين رافضاً نظريتهم الأخلاقية؛ مؤكداً أن الأخلاق مطلقة "لا تختلف باختلاف الزمان والمكان، ولا تتغير بتغير الظروف والأحوال"⁽¹⁵⁾.

والحقيقة أن الأخلاق في الفلسفة اليونانية قامت على تمييز الشعب اليوناني وتفضيلهم على غيرهم، وقد تأثر بذلك الإنسان الأوربي؛ فدفعه ذلك إلى تحقير ما دونه من أجناس أخرى، وتبرير استعمار الشعوب غير الأوروبية واستغلالهم واستعبادهم، يؤكد ذلك الفيلسوف البريطاني برتراند رسل قائلاً: "لقد أخطأ اليونان خطأ فاحشاً حين أحسوا شعور السيادة على الشعوب البربرية، ولا شك أن أرسطو قد عبّر عن فكرتهم العامة في ذلك حين قال: إن أجناس الشمال مليئة بشعلة الحياة وأجناس الجنوب متحضرة، واليونان وحدهم هم الذين يجمعون الطرفين: فشعلة الحياة تملؤهم، وهم- في الوقت نفسه- متحضرون. وأفلاطون وأرسطو كلاهما قد ذهبا إلى أنه من الخطأ أن يُتخذ من اليونان عبيد، لكن ذلك عندهما جائز بالنسبة للشعوب البربرية"⁽¹⁶⁾.

وتتفق الفلسفة النفعية مع رأي السفسطائيين في أن الأخلاق نسبية، وكل ما يحقق منفعة الفرد فهو خير؛ فمذهب النفعية يقوم على "أساس أن اللذة هي الغرض الوحيد الذي تهدف إليه رغبات الإنسان،

(13) المرجع السابق، ص26.

(14) حسين حمزة شهيد، الأخلاق في فكر أفلاطون الفلسفي، مركز دراسات الكوفة 2008 م، ص261.

(15) توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، دار النهضة العربية. القاهرة، 2006م، ص11.

(16) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، وترجمة: د. زكي نجيب محمود، ومراجعة أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1967م، ج1 ص251.

وأنها مستوى الأفعال الإنسانية ومعيار الأحكام الخُلقية، وكلا الأمرين لا يصمد للنقد؛ ومن هنا كان تداعي النفعية بتداعي الأسس التي قامت عليها"⁽¹⁷⁾.

وأما فلسفة العقليين، وإمامهم الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت، فلم تعترف باللذة مقياساً للأخلاق، بل عدّوا "الواجب أمراً مطلقاً يتنافى مع نزعاتنا الطبيعية وميولنا الفطرية، وأقاموا الأخلاقية على قهر النفس ووأد مطالبها وقمع رغباتها"⁽¹⁸⁾.

ونجد أن الفلسفة الوضعية تتناغم إلى حدّ كبير مع المنطق الحقيقي لجوهر المُثل الخلقية وعلاقتها بالفرد والمجتمع؛ فتشير إلى أن المُثل الأخلاقية علم واقعي يخضع لأسلوب الاستقراء، وينصب تركيزه على الملاحظة، ويتجلى في العادات والأعراف والمُثل العليا للجماعة، وللأسف الأخلاقية ملامح كثيرة، منها:
- إنها تعتمد على الملاحظة، وتنظر للشخص نظرة واقعية.

- إن المُثل الأخلاقية نسبية وليست ثابتة؛ لاعتبارهم أن المعرفة نسبية.

- إن الميول نحو الآخر أمر فطري، وهي أساس الأخلاق في تعامل الشخص مع غيره.

- إن مصدر المُثل هي الميول والعواطف الفردية بين البشر، ثم تتطور لتصبح عواطف ذات صيغة عقلية"⁽¹⁹⁾.

ويرى "أفلاطون أن المُثل هي الخير، ومصدر الوجود والكمال. أما جون ديوي فيعتبر الأفكار والمُثل الأخلاقي مجرد وسيلة وذريعة يستعين بها الفرد لتوجيه سلوكه للوصول إلى مطالبه وغاياته"⁽²⁰⁾.

وهذا يعني أن ديوي ينظر إلى الأخلاق على أنها وسيلة تحقيق غاية عظيمة؛ فإن كانت المُثل ليست إلا جسراً يعبر من خلالها الفرد إلى أهدافه وغاياته؛ فإن ذلك يتنافى مع النظرية اليونانية المعتمدة على العقل؛ فالفرد ليس بحاجة للمُثل الخلقية للوصول إلى هدفه إلا إن كان الأمر من باب الخداع، وهذا أمر فردي ليس عاماً. وإن كان الفرد يستخدم المُثل الخُلقي كوسيلة أو ذريعة فهو في الحقيقة ابتعد عن المُثل الخُلقي، ودخل في باب النفاق الاجتماعي أو الوظيفي، أو أي نوع من النفاق الذي هدفه تحقيق المصلحة للذات.

أما ابن مسكويه فقد عرّف الأخلاق قائلاً: "إنها حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية"، ثم قام بتقسيم الأخلاق إلى قسمين، هما:

(17) توفيق الطويل، مذهب النفعية العامة في فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1953م، ص295.

(18) المرجع السابق، ص318.

(19) مصطفى حلمي، الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ص74.

(20) هاني الطويل، النظام التربوي والقيم، بحث مُقدّم إلى مؤتمر القيم والتربية في عالم متغير، المنعقد في جامعة اليرموك، الأردن، 28-30/9/1999م.

أولاً: ما يكون طبيعياً من أصل الإنسان، والذي يحركه أدنى شيء في الإنسان.

وثانياً: ما كان مستفاداً بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه حتى يصير ملكة خلقاً⁽²¹⁾.

ويشير الساعاتي إلى أن: "المثل: مفاهيم عاطفية تقوم على أسس نفسية اجتماعية يوجد لها الإرث الاجتماعي من خبرات الزمان الماضي والثقافة المتمثلة بالتنشئة الاجتماعية، وقد تصبح المثل فكرًا اعتقاديًا قويًا يتعلق بأشياء مفيدة داخل الحياة الاجتماعية"⁽²²⁾.

وفي الحقيقة أن هذا التعريف قد أجمل كل ما يتعلّق بالمثل من خبرات حياتية وثقافات ومعتقدات اجتماعية، بينما يرى غريب أن المثل: "نسبية، وتختلف من شخص لآخر بناءً على الحاجات والرغبات والظروف المحيطة بالفرد؛ بمعنى أنها إنسانية شخصية"⁽²³⁾.

وهذا كلام سليم؛ لأن المجتمع بأعرافه وتقاليده وقوانينه ليس قادرًا على توحيد كل الناس على منظور أخلاقي واحد؛ ففي البيت الواحد تجد تباينًا في تبنّي الأفكار، ومنها المثل الأخلاقية؛ وعليه وجدنا الباحث يصفها بأنها نسبية، وتختلف من شخص إلى آخر.

وتُعرّف المثل بأنها: "مجموعة من الأحكام التي يصدرها الفرد على المحيط الإنساني والاجتماعي؛ فهي نتاج اجتماعي تقبله الفرد ورضي به"⁽²⁴⁾.

ويُعرّفها عوض بأنها: "مجموعة المعايير الاجتماعية الانفعالية التي تتصل بمستويات خلقية تُقدّمها الجماعة، ويتشربها الفرد من خلال التفاعل مع الآخرين"⁽²⁵⁾.

ويرى بركات أنها: "مجموعة من المعايير التي تنبثق من مجتمع ما، وهي بمنزلة القدوة لهم، وعليهم الالتزام بها، وأن الخروج عنها بمنزلة الخروج على المجتمع ومثله العليا"⁽²⁶⁾.

(21) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق: ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت، ص 41.

(22) حسن الساعاتي، نسق القيم في المجتمع والتغير الاجتماعي في القيم الأخلاقية المرتبطة بعمل رجل الأمن، أبحاث الندوة الأولى، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، 1988م، ص 100.

(23) غريب محمد سيد، الإطار القيمي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987م، ص 24.

(24) فؤاد أبو حطب، علم النفس التربوي، القاهرة، الأنجلو المصرية، 1996م، ط 5، ص 87.

(25) عباس عوض، في علم النفس الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1991م، ص 52.

(26) لطفي بركات أحمد، القيم والتربية، دار المريخ، القاهرة، 1983 م، ص 4.

كما يُنظر إلى المثل على أنها: "وحدات معيارية اجتماعية يلتزم بها أفراد جماعة ما، وتميز السلوك المرغوب فيه من السلوك غير المرغوب فيه. وهي إصدار الحكم القيمي للمشكلات الاجتماعية والخيارات الخلقية"⁽²⁷⁾.

وتُعرّف بأنها: "القيم الحقيقية التي يُحَكَم من خلالها على السلوك الخلفي وتحكمه، وهي تُخضع الفعل والسلوك والهدف من العمل على مستوى مقبول أو غير مقبول".⁽²⁸⁾

ويمكن القول: إن المثل الأخلاقية تشير إلى:

- إنها نتاج المجتمع التي يلتزم بها الأفراد.
- إنها أحكام عقلية انفعالية تصدر عن الأفراد أو المجتمع.
- إنها تحكم السلوك؛ من خلال المعايير يتم الحكم على السلوك.
- إنها نسبية تختلف من مجتمع لآخر⁽²⁹⁾.

وقد جعل الإسلام الأخلاق وسطا بين الفلسفتين: فلسفة النفعيين وفلسفة العقليين؛ فلم يُبَح اللذة للإنسان مطلقا، ولم يقهر النفس البشرية ويقمع رغباتها، فلا رهبانية وتشدد، ولا تهاونا وتفريطا. ويؤكد ذلك قوله تعالى: (وكذلك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)⁽³⁰⁾. يقول الطبري مفسراً هذه الآية: "وأرى أن الله -تعالى ذكّره- إنما وصفهم بأنهم: "وسط" لتوسطهم في الدين؛ فلا هم أهل غُلُوّ فيه، غلُوّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه؛ فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوْسطها"⁽³¹⁾.

(27) عبد الودود مكروم، الأصول التربوية لبناء الشخصية المسلمة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996م، ط1، ص233.

(28) هناء الجبالي، التربية الجمالية وتنمية القيم الأخلاقية، رسالة دكتوراه، كلية البنات، جامعة عين شمس، 2001م، ص18.

(29) عبد الودود مكروم، الأصول التربوية لبناء الشخصية المسلمة، ص235.

(30) سورة البقرة: الآية: 143.

(31) محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، - 2001م ج2، ص626-627.

ومن الناحية الإسلامية يُنظر إلى المُثل الأخلاقية بأنها: "علاقة الفرد بربه والمجتمع، ونظرة الفرد لنفسه وللآخرين، ولسلوكه وكيفية ضبطه، ومكانته الاجتماعية"⁽³²⁾. قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)⁽³³⁾.

ويعرّفها كفاقي بأنها: "المعتقدات والأحكام المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، والتي يمثلها الإنسان المسلم ويلتزم بها، والتي يتحدد في ضوئها علاقته بالله -تعالى-، واتجاهاته نحو الحياة الآخرة، وموقفه من بينته المادية والإنسانية"⁽³⁴⁾.

وقد عرّف جابر قميحة المثل الأخلاقية بأنها: "مجموعة من الأخلاق التي تصنع شخصية الفرد، وتجعل منها شخصية متكاملة قادرة على التفاعل مع الآخرين، والتوافق مع أعضائه، وأشارت إلى المثل الإيجابية التي يجب التحلي بها، كمكارم الأخلاق، والصدق والرحمة والكرم وغيرها من هذه المثل"⁽³⁵⁾. ويشير إبراهيم إلى ثلاثة مبادئ عامة للمثل هي:

- "السعادة في الآخرة، وهي الغاية الأعلى للفضيلة.

- الغيرية، وهي تحقيق الخير للآخرين من غير الأسرة.

- التناسق الخلقى، وهو ما يضبط ممارسة الأخلاق"⁽³⁶⁾.

ومن خلال ما تقدّم عند هذين الباحثين (كفاقي، جابر قميحة) نلاحظ أن نظرتهم للمثل الخلقى نابعة من منظور إسلامي بالدرجة الأولى، ومن العادات والتقاليد العربية؛ فاهتمامهما بالجانب الروحي واضح، على خلاف ما وجدنا عند المفكرين الغربيين.

"فالمثل الأخلاقية تأخذ أبعاداً روحية ووجدانية واجتماعية، فمن الناحية الاجتماعية تؤدي دوراً سامياً في قوة وتماسك أفراد المجتمع"⁽³⁷⁾. "وتعدّ المثل نتاجاً اجتماعياً يحدد المجتمع وأنماط القيم المختلفة في الحياة،

(32) محمد عفيفي، في أصول التربية الأصول الفلسفية في التربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980م، ص 44.

(33) سورة النحل، الآية 90.

(34) محمد كفاقي، تصنيف مقترح لبعض القيم الإسلامية، مجلة الأبحاث التربوية، السنة السابعة، العدد 14، مصر،

1989، ص 71.

(35) جابر قميحة، المدخل إلى القيم الإسلامية، دار الكتب الإسلامية، القاهرة 1984م، ص 41.

(36) أحمد عبد الرحمن إبراهيم، الفضائل الخلقية في الإسلام، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، 1982م، ص 313-

314.

(37) أحمد كمال أبو المجد، القيم والتحويلات الاجتماعية المعاصر، نشر مكتب المتابعة لمجلس وزراء العمل والشؤون

الاجتماعية بالدول العربية الخليجية، المنامة، ط1، 1990م، ص 60.

وهي مُلزِمة للفرد والآخرين⁽³⁸⁾. "ومن الناحية الروحانية فهي التي تتحكم بالسلوك بناء على اهتماماته واتجاهاته الدينية، وهي معيار لقياس تصرفاته وقناعاته"⁽³⁹⁾.

وهذا ما يؤكد أن الباحثين قد ارتكزوا على ذلك في تعريفهما للمثل الأخلاقية؛ فالمفكر المسلم لا يرى انفكاكاً للمثل عن الدين الإسلامي؛ إذ إن إلزام الفرد بالمثل من أهم ما جاء به الإسلام، قال -تعالى- واصفاً سيدنا محمداً -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- رداً على ادعاءات الكفار: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) (40). ومن خلال حديث لرسول الله ﷺ تظهر أهمية الأخلاق الدينية والاجتماعية؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْخُلُقِ»⁽⁴¹⁾.

وخلاصة القول: إن الدين الإسلامي قد رسَّخ القيم والمثل الإنسانية النبيلة في نفس المسلم وعقله، وهذا الأمر قد انعكس على المجتمع المسلم، فحياة المسلم تسيير وفق المنهج الإسلامي الرباني؛ لأن القيم والمثل في الإسلام المصدر الأول للقرآن الكريم وسنة النبي ﷺ الأمين؛ وهذا يصبغها بصبغة القدسية، فالأخلاق الإسلامية ثابتة ومرنة وشاملة لكل مراحل العمر، صالحة لكل زمان وكل مكان، وهذا ما لم تتنادى به الفلسفة اليونانية، ولم تقل به معظم الفلسفة الغربية خاصة القائمة على النفعية.

المبحث الثاني: العلاقة بين فن المديح والمثل الأخلاقي

بعد التعرف على مفهوم المثل الأخلاقي، يجدر بنا أن نتعرف على المديح لغة واصطلاحاً. فمعنى المديح في اللغة: اشتقت لفظة "المديح" من "مدح: قال ابن فارس: "الميم والذال والحاء أصل صحيح يدل على وصف محاسن بكلامٍ جميلٍ. ومنحه يمنحه منحاً: أحسن عليه الثناء. والأمدوحة: المدح"⁽⁴²⁾.

فالمديح: "هو إحسان الثناء على المرء بما له من الصفات الحسنة، مدحه كمنعه، مدحاً ومدحةً: أحسن الثناء عليه ... والمديح والأمدوحة ما يمدح به، جمعه: مدائح، وأماديح"⁽⁴³⁾.

(38) صلاح الدين بسبوني، القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1990م، ص 8-9.

(39) نبيل سفيان، فهم الناس من خلال قيمهم، 2002، من الموقع الإلكتروني التالي: <http://www.Khayma.com/dr-nabil/makalat/h4.htm>. تم الرجوع إليه بتاريخ 2016/06/14.

(40) سورة القلم، الآية 4.

(41) الإمام مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، 1985، ص 904.

(42) أبو الحسن أحمد بن فارس الرازي، معجم مقاييس اللغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420 هـ - 1999م ص 503 (مادة: مدح).

(43) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، 2005م، ص 240. مادة مدح.

ولا يقتصر المديح على الشعر بوجه خاص أو الكلام بوجه عام، بل إن "المديح: خطبة أو حديث أو كتابة تطري إنسانا أو إنجازا، وتهيل عليه الثناء بغير حساب" (44).

وشاع المديح عند العرب في أقوالهم وكتاباتهم، وانتشر وازدهر في الشعر والنثر على حد سواء، وللعرب فيه صيغ محددة للمديح سميت قياسية باستخدام الفعل (نعم)، وهو فعل جامد خُصص لإنشاء المدح، كقولنا: نعم الرجل العابد، ونعم الفتاة المحتشمة، واستخدم هذا الفعل في القرآن الكريم بعدة مواضع، منها قوله تعالى: (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلْنَا رُبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) (45). وقوله تعالى: (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّوْنَ) (46).

وفي الشعر قال زهير يمدح سنان بن أبي حارثة المري (47):

نَعْمَ الْفَتَى الْمُرِّي أَنْتَ، إِذَا هُمْ حَضَرُوا، لَدَى الْحُجْرَاتِ، نَارَ الْمُوقِدِ

أو باستخدام الفعل حَبَّذاً، وهو أيضاً فعلٌ جامد، صيغ لإنشاء المدح، وجاء مركباً مع اسم الإشارة (ذا) كقولنا: حَبَّذا الرجل المخلص، حَبَّذا المرأة المُخلصة، أما في الشعر فمنه قول جرير (48):

يَا حَبَّذا جَبَلُ الرَّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ! وَحَبَّذا سَاكِنُ الرَّيَّانِ مِنْ كَاتِنَا

كذلك فقد وَضَعَ علماء اللغة بعضَ الأفعالِ القياسيةِ للدلالةِ على المدح والذم في آن واحد، تَمَثَّلَتْ في الفعل الثلاثي المفتوح الفاء والمضموم العين، مثل: حَسَنٌ، كَبُرَ، شَرُفَ... نحو قوله تعالى: (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (49).

أما الصيغ الأخرى للمدح التي تسمى غير قياسية أو سماعية فهو الذي دل على معنى المدح دون استخدام هذين الفعلين: (نعم، حَبَّذاً)، وله ألفاظ كثيرة متعددة تقود إلى معنى المدح دون صيغ محددة، سواء في النثر أو الشعر، مثل: لله دره... وغيرها. ومن ذلك: قول المتنبي في وداع أبي العشائر (50):

وَالْجُودُ عَيْنٌ وَأَنْتَ نَاظِرُهَا وَالْبِئْسَ بَاغٍ وَأَنْتَ يُمْنَاهُ

(44) إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، نشر المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، طبع التعااضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس - تونس، 1986 م، ص 317.

(45) سورة النحل؛ الآية 30.

(46) سورة الذاريات؛ الآية 48.

(47) زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1986م، ص47. البحر الكامل.

(48) جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير، ديوان العرب، دار بيروت، بيروت 1986م، ص493. البحر البسيط.

(49) سورة النساء؛ الآية 69.

(50) أحمد بن حسين الجعفي المتنبي أبو الطيب، ديوان المتنبي، دار بيروت، بيروت 1983م، ص252. البحر الوافر

وقول جرير (51):

أَسْتُمُّ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بِطَوْنِ رَاحٍ

ويُعدُّ بيت جرير السابق أمدح بيتِ قائلته العرب، فقد وصف بمدوحة بالشجاعة في الشطر الأول، وبالكرم في الشطر الثاني، في حين يظهر الكرم في الشطر الأول عند المتنبي وتظهر القوة والشجاعة في الشطر الثاني.

والأخلاق العالية والمثل النبيلة من الأمور والصفات المُحبَّبة لدى العرب والعجم، إلا أنها للعربي أُلزم وأوجب وأحب، وتلك المفخر والمحاسن ليست مما يتقادم عليه الزمان؛ فتننفي قيمته، فما كان محبباً من الصفات الكريمة في الجاهلية بقي محبباً في الإسلام، ولم ينتقص من قيمته، بل إن الإسلام أقرَّ بعض العادات الجاهلية الحميدة، وهي صفات لا تختلف عليها في أصلاتها أي أمة، كالكرم والشجاعة والشهامة وحفظ الوُدِّ والعهد والحكمة والتأني.

وقد تنوّعت أغراض الشعر العربي بتنوع المناسبات والوقائع التي يعيشها العربي؛ فكانت قصائد الفخر والحماسة والمدح والهجاء والثناء والغزل والخمريات إلى غير ذلك من تصويرٍ لوقائع الحياة، كالوصف إضافة إلى النصائح والمواعظ.

وكان المدح من الأغراض الأصيلة الرئيسة في الشعر العربي؛ وذلك لعلاقته الوثيقة بحياة الشاعر القبليّة، فهو المُدافع عن قبيلته، يُمدِّد أيامها ويمدح فرسانها. ويعدُّ المدح من أقدم أغراض الشعر، فالإنسان يأنس له، ويضفي على النفس شيئاً كبيراً من الألفة والراحة؛ وذلك لما له من أثر بالغ في العاطفة، وهذا يجعلنا نربط بدايات المدح بالغزل، فالغزل أساسه الثناء على الحبيب وتصوير العواطف والأشواق، ثم يتناسب الأمر أيضاً مع الفخر فما هو إلا مدح للذات وللقبيلة.

ومن الأدلة على ذلك ما قاله عمرو بن كلثوم في معلقته (52):

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نَحْبِرَكَ الْيَقِينَا
بِأَنَا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضًا وَنَصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا
وَأَيَّامٍ لَنَا غَرٌّ طَوَالٍ عَصَيْنَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا
وَسَيِّدٍ مَعَشَرَ قَدْ تَوَجَّوهُ بِتَاجِ الْمَلِكِ يَحْمِي الْمُحْجَرِينَا

(51) جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير، ص77. البحر الوافر.

(52) عمرو بن كلثوم، ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، -1991م، ط1، ص71. البحر الوافر .

ففي الحقيقة هذه هي مفاخر بالقبيلة ومن ثم هي مدح لقبيلته، وبالتالي لنفسه وكان الفخر بالقبيلة من أحد أبنائها أمر عظيم، ولا يقلُّ الأمر أهمية إذا مدحت القبيلة من شاعرٍ مُتَكَسِّبٍ ليس من بطونها؛

فلمدح أثرٌ عظيم عند الأشخاص أو القبائل، فالشعر يرفع شأن الوضيع، ويحط شأن الرفيع، ويرفع قبيلةً ويحطُّ أخرى. وها هو الحطينة يمدح قبيلة (أنف الناقة) الذين كانوا يخلون من اسم قبيلتهم فيقول (53):

قَوْمٌ هُمْ الْأَنْفُ وَالْأَنْبَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّي بَأَنْفِ النَّاقَةِ الدَّنْبَا

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لِجَارِهِمْ شَدَّوْا الْعِنَاجَ وَشَدَّوْا فَوْقَهُ الْكِرْبَا

وكذلك الحال عند الحارث بن حلزة يمدح كرم قبيلته (54):

أَلْفَيْتِنَا لِلصَّيْفِ خَيْرَ عِمَارَةٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ لِبَنِّ فَعَطْفُ الْمُدْمَجِ

فالشاعر يعمد للمديح ويقصده لأسباب عديدة، منها: إعجاب الشاعر بالمدح وصفاته ومآثره وفضائله، أو شكره على معروف أسداه إليه أو إلى قبيلته، أو التكبُّب عن طريق المدح. ومثال ذلك في الجاهلية الشاعر النابغة الذبياني الذي تنقل بين الغسانيين وملوك الحيرة مُتَكَسِّبًا طامعًا بالصَّلَات من النعمان بن المنذر.

ومن شعراء التكسب بالمديح -أيضًا- الأعشى الذي جال البلاد متكسبًا مادحًا؛ فقد مدح الأسود بن المنذر اللخمي، فقال (55):

عِنْدَهُ الْحَزْمُ وَالنَّقَى وَأَسَا الصَّرِّ عِ وَحَمَلٌ لِمُضْلِعِ الْأَثْقَالِ

وَصِلَاتِ الْأَرْحَامِ قَدْ عَلِمَ النَّا سِ وَفَكَ الْأَسْرَى مِنَ الْأَغْلَالِ

وَوَفَاءً إِذَا أُجْرَتْ فَمَا عَرَّ تِ حِبَالٍ وَصَلَّتْهَا بِحِبَالِ

إِنْ يُعَاقِبُ يَكُنْ عَرَامًا وَإِنْ يُعَ طِ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي

فهو بمدحه هذا - وإن كان مُتَكَسِّبًا - فإن مدحه يَزْخَرُ بالمثُل الأخلاقية والقيم العليا التي يطمح إليها كل ممدوح.

(53) جرول الحطينة العبسي أبو مليكة، ديوان الحطينة، برواية وشرح ابن السكيت، دراسة وتبويب: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ط1، ص 45. البحر البسيط.

(54) الحارث بن ظلم بن حلزة اليشكري، ديوان الحارث بن حلزة، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، 1991م، ط1، ص 44. البحر الكامل.

(55) مأمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: محمد حسين، الناشر: مكتبة الآداب، القاهرة، ط. المطبعة النموذجية، (دبت)، ص 9. البحر الخفيف

ويبدو أن الأمرُ بالمدح بدأ مدحًا خالصًا لصفات أعجبَ بها الشاعر، أو لإظهار فضائل ممدوحة إلى أن أصبح مع تقدم صنعة المدح ليُصبحَ تكسبًا صريحًا وطلبًا للعطايا والهدايا. والشاعر يجهد نفسه في شعر المديح تكسبًا أكثر من مدحه بغير تكسب، فنجد أبا تمام "كان يفتت اللغة من أجل الوصول إلى معانيه ويصقلها، ويكتفها، وكان يضع بابتكاراته توقيعه الخاص على عوالم شعرية جديدة اكتسبها بالكدح الشديد" (56).

ويمكن القول: إنَّ التَّكْسِبَ أكسب الشعر ألوانًا جديدة، واهتمامًا بالغًا من الشاعر في التألُّق بقصيدته، وذلك لتكون محط إعجاب الممدوح؛ ليُجزَلَ له العطاء، وتمثَّل هذا الاهتمام في التركيز على المثل الخلقية والتغيير في القوالب الشعرية التقليدية فجاءت الزخرفة اللفظية وأيضًا الثورة على المقدمة الطللية، كما رأينا عند أبي نواس ورأينا أبا تمام والمنتبي وغيرهم من الشعراء يمدحون بما لم يكن مألوفًا أو دارجًا فيما قبلهم، وهذا لا ينفى وجود تكسب قديم، ولا ينفى وجود زخرف لفظي وبديعي كما أسلفت الباحثة، وهذا لا يقلل من أهمية صدق العاطفة والتجربة الشعورية إذ هي من أهم عناصر الشعر، وقد أكد أكثر النقاد أن التكسب عامل قوي من عوامل الإبداع الشعري.

ويتحدث أبو هلال العسكري عن فضيلة شعر المديح الذي قيل بغرض التكسب فيبين سحره، وقوة تأثيره في الممدوحين، فيقول: "ولا يفوز أحد من مؤلفي الكلام كما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة، والعوارف السنية، ولا يهتز ملك أو رئيس، كما يهتز له، ويرتاح لسماعه، وهذه فضيلة أخرى لا يلحقه فيها شيء من الكلام" (57). فالعسكري ومن تبعه (58) رأوا أن شعر التكسب بلغ "أعلى درجات الإبداع الفني لأن قائله يضطر إلى تجويده وتحسينه؛ ليلائم مقام الممدوحين، ويتصيد به عطاياهم وهباتهم، وينال الحظوة الكبرى عندهم" (59).

لقد كان أبو تمام يتكسب بشعره لكنه كان "شديد الاعتداد بنفسه، يأبى الذل، ويترفع عن الدون" (60). وماذا عن أبي تمام من لوم؟! فإنه "عندما كان يمدح فإنه يساير عصره، ويكتسب قوته" (61).

(56) عبده بدوي، أبو تمام وقضية التجديد في شعره، مكتبة الشباب، القاهرة، دت، ص133.

(57) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: د. مفيد قميحة دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1401م، ص155.

(58) وافقه على هذا الرأي كل من: ابن قتيبة في الشعر والشعراء، ص30، ص33. وابن رشيق في العمدة، ج1 ص214. وأبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي، إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس، ط2، حققه وقدم له: د. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1405هـ، ص45.

(59) راند مصطفى عبد الرحمن، ظاهرة التكسب بالشعر وتجلياتها في النقد العربي القديم، مجلة جامعة الأزهر بغزة، فلسطين، سلسلة العلوم الإنسانية 2010 م، المجلد 12، العدد 1، ص461.

(60) كوركيس عواد ومخائيل عواد، أبو تمام حياته وشعره في المراجع العربية والاجنبية، مكتبة الإرشاد، بغداد، 1971م، ص6.

(61) عبد الله المحاربي، أبو تمام بين ناقديه قديما وحديثا، القاهرة، ط1، 1992م، ص511.

الخاتمة والنتائج

كان العرب أهل الكرم، وأهل الشجاعة، وأهل الحياء، والمروءة والنخوة، والوفاء بالعهد، وأهل فطنة وفراسة ونكاه... إلخ. ولا يمنع ذلك من وجود بعض الأخلاق الذميمة لديهم ثم جاء الإسلام كي يؤكد هذه الأخلاق، ويثني عليها، ويُعزّزها ويمدحها، كذلك جاء الإسلام بالنامذج الخُلقية، والأوامر الأخلاقية، والنواهي السلوكية، وبذلك يكون الإسلام قد خلق قواعد لسلوك الإنسان وأخلاقه وأفعاله، فمتى يقيم بالأوامر ينل الثواب، ومتى يُخالف ذلك يُعاقب.

ومن أبرز النتائج:

كانت المثل الأخلاقية الواردة في قصائد المديح موضع جدل وخلاف بين النقاد العرب القدامى والمحدثين من عدة جوانب أهمها: معاني الصدق والكذب في القصيدة، تقييد فضائل الممدوح وإطلاقها، أثر البداوة والحضر على القصيدة، وقد أيدت الباحثة الرأي القائل إنه يحق للشاعر في قصيدة المديح أن يذكر صفات ممدوحه بصورة فيها مبالغة ومتكلفة فهذا يعطي للمتلقي فرصة لاكتساب الفضائل الحميدة، كذلك له حرية ذكره الفضائل المختلفة لممدوحه دون تقييد، وأن شعراء البداوة أكثر التزاماً بالمثل الأخلاقية من شعراء الحضر، لأن البداوة وليدة الفطرة والأخلاق الحميدة.

إن أكثر شعراء العصر العباسي اعتنوا بالمديح في الشعر العربي، وبنوا صوراً حية للمثل الخلقية في مدائحهم، وأضافوا معاني الحزم والمروءة والعفة والكرم وعلو الهمة والشجاعة إلى غير ذلك من مروات النفس وصفات الفارس العربي، وصفات الإنسان القائد الحليم الحكيم؛ إذ استطاع الشاعر العباسي أن يُجسّم تلك المثل الخلقية في ممدوحه تجسيداً قوياً، وهذا نتاج العقول الخصبة والخيال البارِع.

ازدهر المديح على لسان بعض الشعراء في تمثيل العناصر المديحية القديمة وما تحويه من قيم اجتماعية ودينية عالية، وبنوا فيها من فرائدهم الخاصة، وأودعوا فيها عناصر جديدة استلهموها من البيئة الحضارية التي يعيشون فيها ومن ثقافتهم وفكرهم ومنطقهم، فنزحوا إلى مدح الخلفاء بالتقوى والعدل، وأطالوا في مدح القادة وشجاعتهم في المعارك والحروب، وعند مدح الوزراء والساسة نجد الحكمة والحكمة والدراية.

المصادر والمراجع

- 1/ البخاري، محمد (1998م)، الأدب المفرد، ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- 2/ الزرعي، محمد (1393-1973م)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- 3/ الجعفي، محمد (1422هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، ط1، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان.

- 4/ الترمذي، محمد، سنن الترمذي، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 5/ النيسابوري، مسلم (1991م)، صحيح مسلم، ط1، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي.
- 6/ الميداني، عبد الرحمن (1999م)، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ط5، دار القلم، دمشق.
- 7/ الجرجاني، علي (1983م)، التعريفات، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
- 8/المانع، مانع (2005م)، القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنة، ط، دار الفضيلة، الرياض.
- 9/ زيادة، رضوان... وآخرون (2010م)، صراع القيم بين الإسلام والغرب، ط1، دار الفكر، دمشق.
- 10/ شهيد، حسين (2008م)، الأخلاق في فكر أفلاطون الفلسفي، ط، مركز دراسات الكوفة
- 11/ الطويل، توفيق (2006)، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، ط، دار النهضة العربية. القاهرة
- 12/ رسل، برتراند (1967م)، تاريخ الفلسفة الغربية، ط1، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة
- 13/ الطويل، توفيق (1953م)، مذهب النفعية العامة في فلسفة الأخلاق، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- 14/ حلمي، مصطفى (2004م)، الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت
- 15/ الطويل، هاني (1999م)، النظام التربوي والقيم، ط،
- 16/ يعقوب، أحمد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- 17/ الساعاتي، حسن (1988م)، نسق القيم في المجتمع والتغير الاجتماعي في القيم الأخلاقية المرتبطة بعمل رجل الأمن، ط1، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض.
- 18/ سيد، غريب (1987م)، الإطار القيمي، ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- 19/ أبو حطب، فؤاد (1996م)، علم النفس التربوي، ط5، الأنجلو المصرية.
- 20/ عوض، عباس (1991م)، في علم النفس الاجتماعي، ط، دار المعرفة الجامعية.
- 21/ أحمد، لطفي (1983م)، القيم والتربية، ط، دار المريخ، القاهرة.
- 22/ مكروم، عبد الودود (1996م)، الأصول التربوية لبناء الشخصية المسلمة، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة.
- 23/ الجبالي، هناء (2001م)، التربية الجمالية وتنمية القيم الأخلاقية، جامعة عين شمس.
- 24/ مكروم، عبد الودود (1996م)، الأصول التربوية لبناء الشخصية المسلمة، ط1، دار الفكر العربي،
- 25/ سورة البقرة: الآية: 143.
- 26/ الطبري، محمد (2001)، تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط1، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع.
- 27/ عفيفي، محمد (1980م)، في أصول التربية الأصول الفلسفية في التربية، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،
- 28/ سورة النحل، الآية: 90.

- 29/ كفاقي، محمد (1989م)، تصنيف مقترح لبعض القيم الإسلامية، مجلة الأبحاث التربوية.
- 30/ قميحة، جابر (1984م)، المدخل إلى القيم الإسلامية، ط1، دار الكتب الإسلامية، القاهرة.
- 31/ إبراهيم، أحمد (1982م)، الفضائل الخلقية في الإسلام، ط1، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض.
- 32/ أبو المجد، أحمد (1990م)، القيم والتحويلات الاجتماعية المعاصر، ط1، نشر مكتب المتابعة لمجلس وزراء العمل والشؤون الاجتماعية بالدول العربية الخليجية، المنامة.
- 33/ بسيوني، صلاح الدين (1990م)، القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، ط1، دار الثقافة للنشر، القاهرة.
- 34/ نبيل سفيان، فهم الناس من خلال قيمهم، 2002، من الموقع الإلكتروني التالي:
<http://www.Khayma.com/dr-nabil/makalat/h4.htm>. تم الرجوع إليه بتاريخ 2016/06/14
- 35/ سورة القلم، الآية 4.
- 36/ أنس، مالك (1985م)، الموطأ، ط، دار إحياء التراث العربي.
- 37/ الرازي، احمد (1999م)، معجم مقاييس اللغة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 38/ الفيروز آبادي، مجد الدين (2005م)، القاموس المحيط، ط8، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- 39/ فتحي، إبراهيم (1986م)، معجم المصطلحات الأدبية، ط1، نشر المؤسسة العربية للناشرين المتحددين، طبع التعااضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس.
- 40/ سورة النحل؛ الآية 30.
- 41/ سورة الذاريات؛ الآية 48.
- 42/ أبي سلمى، زهير (1986م)، ديوان زهير بن أبي سلمى، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 43/ الخطفي، جرير (1986م) ديوان جرير، ديوان العرب، ط، دار بيروت، بيروت.
- 44/ سورة النساء؛ الآية 69.
- 45/ المتنبي، أحمد (1983م)، ديوان المتنبي، ط1، دار بيروت، بيروت.
- 46/ الخطفي، جرير (1986م) ديوان جرير، ديوان العرب، ط، دار بيروت، بيروت.
- 47/ كلثوم، عمرو (1991م)، ديوان عمرو بن كلثوم، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت.
- 48/ العبسي، جروال (1993م)، ديوان الحطيئة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 49/ اليشكري، الحارث (1991م)، ديوان الحارث بن حلزة، ط1، دار الكتاب العربي.
- 50/ قيس، مأمون (1437هـ)، ديوان الأعشى الكبير، ط. المطبعة النموذجية، مكتبة الآداب، القاهرة.
- 51/ بدوي، عبده (1985م)، أبو تمام وقضية التجديد في شعره، ط1، مكتبة الشباب، القاهرة.
- 52/ العسكري، أبو هلال (1401م)، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ط1، دار الكتابة العلمية، بيروت.

- 53/ عبد الرحمن، رائد (2010م)، ظاهرة التكسب بالشعر وتجلياتها في النقد العربي القديم، عدد 1، مجلة جامعة الأزهر بغزة، فلسطين.
- 53/ ابن قتيبة في الشعر والشعراء، ص30، ص33. وابن رشيق في العمدة، ج 1 ص214. وأبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي، إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس، ط
- 54/ الداية، محمد (1405هـ)، عالم الكتب، ط، بيروت، لبنان.
- 55/ عواد... وآخرون، كوركيس (1971م)، أبو تمام حياته وشعره في المراجع العربية والأجنبية، ط1، مكتبة الإرشاد، بغداد.
- 54/ المحاربي، عبد الله (1992م)، أبو تمام بين ناقديه قديما وحديثا، ط1، القاهرة.

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v3.23.7